المديـر

بلهجة محنك عرك الدهر يرثي لغر أحمق خاطبها بقوله وقد أسـند مرفقـه إلـى طرف مكتبه:

-" ستشقين كثيراً يا آنسة.. نحن في عصر يحطّم فيه من يسير علـى الـصراط المستقيم ويحرص على الواجب ويسلك سبل الشرف"

-" لا أحد يقوى على تحطيمي! "

-" يبدو أنك عظيمة الثقة في نفسك ولكن –"وابتسم ابتـسامة معنويـة: خـسرت وظيفتك"

وشاب لهجتها غضب خفيف -" خسارة غير قيمة.. أريد أن أحيا، ولا حياة لي مع ذل.." لا عبرت به ساعة لا تعزني، ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما" هذا شعاري فلا وظيفة تهين كرامتي كمعلمة هي المثل الأعلى لطالباتها! لو غالطت الحقيقـة أمام ذلك المستعمر، مدير معارفنا، وهو يتلاذذ بتحقيرنا لهانت علي نفـسي وهـي أعز ما أحرص عليه.. أما الوظيفة فمجالها واسع أمامي.. فإن لـم أتفـق معكـم بعملي الجديد هجرت إلى فترة دماغي" لأعمل بيدي، وإني واجدة في كـل عمـل لذة، راضية بما تقذفه المصادفة إلي...

ووقف مدير المدرسة الوطنية يعبث بذقنه الرفيعة ويرقص في عينيه مكر غريب

-" ولكن يا آنسة.. العام الدراسي ليس في فجره.. ولا مكان شاغر لك عندنا"..

إنها تنتظر منه هذا الجواب.. فلقد سمعت عنه مقدرته العجيبة في المساومة ليستغلّ أكبر جهد من معلميه بأبخس ثمن.. فوقفت تتظاهر باللامبالاة:

-" إذن فإني آسفة لإزعاجكم" وحملت نفسها شطر الباب واثقة من حاجته الماسـة إليها لملئ فراغ مركز معلمة سافرت فجأة..

أما هو فلم يشأ أن تطير الفرصة من يده فاستوقفها قائلاً:

-" على كل حال لا تبتري حبل الأمل.. تعالي في الغد"..

-" آسفة يا أستاذ.. إنني لا أحبذ المماطلة وليس للغد مزية تجعلـه ألـين عريكـة للاتفاق من اليوم.

-" صحيح ولكن لدي موعد بعد دقائق.. فهل تنتظرين ربع ساعة حتى أعود؟"

وهزت رأسها موافقة

-" لا بأس أنتظر"

وانفردت بغرفة الإدارة، وفركت يديها لتعيد إلى أصـابعها المتجمـدة الحـرارة، وأطلت من النافذة إلى المنظر الخارجي، إلى السماء الزرقـاء أضـافتها سـحب بيضاء، إلى الحدائق المتحررة اتحدت مع الأفق، إلى العمال دائبين في إنشاء مبنى إضافي للكلية تسلخ وجوههم وأيديهم الريح العاتية. وفتح الباب بعنف، وأطل منه فتى في الخامسة عشرة من عمره ساخط الملامح:

- " أين المدير؟"

وأجابت المعلمة وهي تشيح بوجهها عنه "لست أدري" وعادت إلى النافذة تراقـب العمال، جنود معركة الحياة المجهولون.

- " ياللقمة المغموسة بالدم".. وفكرت في نفسها.. أتراها أخطأت في تحديها مدير المعارف الأجنبي؟ نشوة الإنتصار اضمحلت والخوف من أن يهزمها التوفيق في وظيفة جديدة يثلج فؤادها.. ورنت إلى السماء تستمد منها الطمأنينة وذكـرت مـا كان في أمرها من شأن، وكيف استدعاها مدير المعارف، من ذكره ينتفض له كل من له احتكاك بالمعارف.

يالثورته الجنونية! ويا لجريمتها التي لا تغتفر! الشعب العربي في مظاهرة، وهي يتدفق في شرايينها السخط لوالد معتقل، هالها أن يكون درسها في تمجيـد الأمـة التي تسوم قومها سوء العذاب فانتهزتها فرصة لتصب غضبها حمماً فـوق رأس المستعمر، لا تدري أن بين بنات قومها من تبلغ بها الخسة لتحمل حديثها إلى ولي الشأن فتصل إلى أسماع مدير المعارف حز في نفسها انقسام قومها على أنفـسهم أكثر مما آلمها موقفها هدفاً لصواعق المدير.. بل لقد اجتـرأت أن تنظـر إليـه نظرتها الطويلة الهازئة رغم اضطراب أعصابها ماذا! أهناك أعظم من طردهـا من وظيفتها؟

تستطيع أن تكذب أو تتجاهل ذلك الإفتراء ولكن طبيعتها الأنوفة تأبى عليها.. إنها لم تفعل شيئاً يعيبها وتخشى إعلانه.

ولما سألها عن صحة ما وصل إليه أجابت بابتسامة جريئة:

-" حقاً كنت أتحدث عن الأساليب الجهنمية التي تتبعها الحكومة الإنجليزيـة فـي تأسيس الوطن القومي لليهود في فلسطين.
وكانت المكافأة المحتّمة لحرية التعبير والشجاعة الأدبية تحريم كل وظيفة حكومية عليها..
وأغلق صنبور تفكّرها صوت رجل لعله أحد العمال "أنا جائع .. جائع لا يكفينـي ما تقدمونه لي من طعام سأكف عن العمل"...
وصاحت به سيدة أنيقة لعلها إحدى المسؤولات عن الإدارة "سأشكوك للمدير أيهـا الوقح" وأجابها بانفعال "لست أخشاك ولا المدير"
ومضت فترة لم يرجع فيها المدير.. وعاد فتى الخامسة عشرة يسأل عنه.. وفـي هذه المرة دخل واستقّل أحد المقاعد مسنداً رأسه بين يديه وعاد المدير منفعلاً يهتز جسده النحيل داخل بذلته السوداء وهو يمسك بالتلفون بعصبية نزقة ويصيح:
-" نمرة 3467 ساعة وأنا أنتظر.. قصت رقبتك وأخرس لسانك أيتها الكاذبـة.. كلا لا أريد شيئاً ولم أعد بحاجة إلى شيء.. ألا لعنة الله على التليفونات وعلى من وظفكن عاملات سنترال".
ورأى الفتى فتقدم منه – " ما بك يا سامي؟"
-" أريد أن أترك الكلية" وأخرج الفتى يده من جيبه مكتظة بأوراق النقد.
-" كنت أريد دفع القسط أما الآن فلا.. لن أبقى دقيقة واحدة"
ولانت لهجة المدير حتى غدت استعطافاً.. وتقدك من الفتى وطوقه بذراعه، وعيناه تبرقان جشعاً خوفاً من ضياع الطالب ونقوده.
-" تكلّم من أساء إليك؟"
-" هذه الآنسة فدوى من تظنني؟ عبد لأبيها؟ إنني أدفع نقودي.. لن أبقـى دقيقـة هنا".
-"هدئ من روعك وأخبرني ما حدث"
-" تقول لي وقحاً، وتطردني من الصف"
-" ومن هي حتى تطردك؟ أمديرة الكلية هي؟ اذهب أنت وسأفعل ما يرضيك"
ورفع سماعة التليفون "أريد الآنسة فدوى"

ولمح المعلمة الجديدة فأراد أن يلقنها درساً قبل صهرها في بوتقة معلمي مدارسـه فضرب بقبضته المكتب صائحاً "معلمات لا يعرفن واجباتهن وحقوق الطلاب! ما يعنيها إن خسرت أنا طالباً؟"

ودخلت الآنسة فدوى.. بدينة قصيرة سمراء ونظرت إليه كأرنب مذعور.

-" كيف تسمحين لنفسك طرد سامي من الصف."

-" ما أفعل إذن بطالب يخاطب معلمته بقوله "أنت غشاشة" وقاحتـه لا تحتمـل.. أمرته بالخروج فأجاب "تخرجين أنت أما أنا فأدفع نقودي"

-" وفيم هذه الضجة؟

-" كنت أقرأ العلامات الشهرية في الإجتماعيات وكانت نتيجته أربعين"

وصاح المدير مقاطعاً "ألا تستطيعين أن تزيدي له عشر علامات أخر؟.. ما يفعل والده إن عرف بسقوطه؟ يجب أن ينجح الطلاب ليبقى إسم الكلية نقياً"

-" ولكنه لا يستحق عشرين علامة.. لم يجب إلا على سؤال واحد من خمسة"

-" قلت لك زيدي له عشر علامات أخر هل فهمت؟

وأجابت المعلمة بانكسار "كما تريد" وخرجت وعقلت الدهشة لسان طالبـة العمـل الجديدة "ويح شباب الجيل، تعلّق عليهم الأمة الآمال، فاسد التربية، مائع الخلـق، يشتري علامات نجاحه بالنقود والتهديد، لا بالجد والعلم..

حسبت الوظيفة في المدارس الخاصة منطلقاً لها فإذا بها بأغلال الفردية والجمـود والانحلال مؤتسرة.. ما أحمقها إذ استثارت في مثل هذا المدير مشاعر وطنية في مستهل حديثها.. إنه يفهم لغة واحدة، لغة الربح، لا يعنيه مصلحة الطالب وكرامة المعلم وتربية الجيل في شيء..

وشغل عنها في تحبير ورقة فترة من الزمن ثم رفع رأسه كأنما لم يفطن إلى الكتلة المهملة سوى اللحظة.. وبدا وجهه أشبه بوجه ثعلب بما ارتسم عليه من ابتـسامة كشراء ماكرة.

-" الآنسة لا تزال هنا؟"

وأجابت بهدوء يغلي جوفه "نعم يا أستاذ"

-" الحق أنني أقدم على مغامرة فيما لو قبلتـك معلمـة فـي إحـدى مدارسـي فالحكومة-

وقاطعته وقد ثار غيظها -" أظن بأنني أنا التي تقدم على هذه المغامرة"

وطُمس معنى الجملة في ذهن المدير حين دفع الباب:

-" ها هي ذي العصاة يا أستاذ"

-" جئني بها سأحطمها على عظامه"

واختفى القادم وسألت المعلمة بدهشة:

-" أتستعملون العصاة في مدارسكم للتأديب؟

وأجابها المدير ضاحكاً:

-" طلابنا نحافظ عليهم كالعين. إنها لعامل وقح"

واسترد تفكيره السابق "نعم يا آنسة فلولا مساعدات الحكومة لنـا لمـا اسـتطعنا الإنفاق على هذه المدارس.. ميزانيتنا ضحلة.. وأنت قد لطخت اسمك بتـصرفك الأحمق.. ليس لنا نحن المستعمَرون إلاّ أن "نداري" فنحن في عصر يحطّم فيه من يسير على الصراط المستقيم.. أقول لك بأنني أقدم على مغامرة فيما لو قبلتـك.. فأنا أخشى أنْ يُخلق لي مشاكل بسببك"

-" معنى كلامك رفض طلبي"

-" كلا، ولكنني أريد أن أطمئن بأن الفائدة منك جديرة بالمغامرة.. فلقد أخبرتـك بأن ميزانيتنا ضحلة. إضافة معلمة تجففها، فأي نفع يعود علي وعـدد الطـلاب وموردنا لن يزيد بتوظيفك؟

ودفع الباب ودخل العامل المذنب تقضقض عظامه برداً وقد تدلت شـفته الـسفلى وشحب لونه وعرفت فيه العامل الذي رأته يصيح بالسيدة "أنا جائع" وسأل ببلاهة –" نعم سيدي؟" وقفز المدير عن مقعده وبيده العصاة -" سأعلمك كيـف تخـشى المدير" وهوى على يديه العاريتين المتدليتين إلى جانبه فتوارتا وراء ظهره ألمـاً ونحره في كتفه ورأسه وجنبه وصدره فانتقلت يداه تواسيان موضع الألـم ولمـا تـصيبهما العـصاة بـأذى تختفيـان وراء الظهـر أو تحـت الإبـط..

-" أيها الجلف.. أيها الخنزير القذر ألا تخشى المدير؟ أيها الحمار لماذا لا تمشي على أربع؟ خسارة العلف فيك"

والعامل مستكين للضرب يتخبطه.. وكأن العلف قد ذكره بالطعام فقال "أنا جائع لا يكفيني الطعام"

فأجابه بغضب:

-" أيها الحيوان الجشع لا هم لك سوى معدتك؟" وعاد إلى نحره بالعصاة "يا عديم الحس ألا تخشى المدير؟ سأقص لسانك فلا يعوي مرة أخرى"

-" أنا جائع، جائع أطعموني جيداً أقوى على العمل!

وأحست المعلمة بمقعدها إبراً ودبابيس لا تقوى على كبت رغبتها في انتزاع العصاة من المدير وجلده بها ليجرب وقعها في الشتاء القارص.. واشتعلت عيناها حنقاً وتقلصت يداها وصرت أسنانها بعصبية.

-"أهذا جزاء رجل يقول إني جائع؟.. رجل فقد حتى ميزة الحيوان الأعجم.. يشقى دهره فلا تمتلئ معدته. ملذته الوحيدة تؤبى عليه ويضرب لأجلها؟ في سبيل اللقمة ما يقاسي، يخشى لو يدفع عن نفسه الأذى أن يفقد عمله فيهلك جوعاً".

وطغت حميتها على مصلحتها بالسكوت.. إنها تشعر بهذا التيار الساخن يزحف حتى بصيلات شعرها رغم تجمد الهواء.. ليتها رجل فتقوى على لكمه لكمة تفقده الرشد...

-" أحسب أنني لا أستطيع التعاون معك.. لقد رأيت اليوم ما فيه الكفاية.. ورأيي فيك لا يشرفك، ولو وكّل أمرك إلي لما وجدت أفضل من السجن لك مقاماً"

ورفع المدير حاجبيه دهشة ونظر إليها بحذر موثوق اللسان وقد أرخت المفاجأة العصاة في يده!!!

* * *